

حديث وشرح

وقفة مع حديث: سبعة يظلهم الله في ظله .. الخ

الدكتور سيد بن حسين العفاني

عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ أنه قال:
”سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه.
منزلة هذا الحديث عند العلماء عظيمة.

قال الذهبي في ”العلو“: ”وقد ورد في ظل العرش أحاديث تبلغ التواتر“-(١)
وقال ابن عبد البر في ”التمهيد“: ”هذا أحسن حديث يروى في فضائل الأعمال وأعمالها وأصحابها إن شاء الله، وحسبك به فضلا، لأن العلم محيط بأن كل من كان في ظل الله يوم القيامة لم ينله هول الموقف“ إلى أن قال: ”وفي فضل الإمام العادل، وفضل الشاب الناسك، وفضل المشي إلى المسجد والصلاة فيه، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وفي المتحابين في الله، وفي البغض في الله والحب في الله، وفي العين الباكية من خوف الله مع قول الله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وفي العفة وفضلها، وفي ذم الزنا وأنه من الكبائر وما انضاف إلى هذا المعنى من قصة ذي الكفل، وفي فضل الصدقة في السر مع قول الله عز وجل: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾، وفي تضعيف الله الصدقة المقبولة من الكسب الطيب إلى سائر ما ينتظم بهذه المعاني آثار كثيرة جدا تحتل أن يفرد لها كتاب، فضلا عن أن ترسل في باب، ومن طلب العلم لله فالقليل يكفيه إن شاء الله وبالله التوفيق“-(٢)

(١) ”مختصر العلو“ للذهبي، اختصار الالباني (ص ١٠٥) طبع المكتب الاسلامي، طبع وزارة الأوقاف المغربية.

(٢) ”التمهيد“ لابن عبد البر (٢/٢٨٢-٢٨٤).

قال الشيخ عطية محمد سالم: "وهو كما قال - رحمه الله -: تحتل معانيه أن تُفرد في كتاب، وقد أفردت بالفعل، ولكن كل التأليف التي أفردت لهذا الحديث تتجه إلى العدد، وتضيف أصنافاً آخر".

إن تلك التأليف لم تتوسع في بيان المعاني التي قال فيها ابن عبد البر إنها تحتل كتاباً، أي: لسعة مدلولاتها، ووفرة معانيها، وشمولها لجوانب المجتمع الإسلامي، وحكمة التشريع، وقوة التأثير في الفرد ومن ثم في الجماعة ثم عوامل تكوين الإنسان التي استطاع بها أن يكتسب هذه الصفة أو تلك، إذ أنها كلها صفات مثالية كاملة لا تُنال إلا بجهد وجهاد.

وكيف نربي عليها الإنسان المسلم من شبابه إلى إمامته، وما بين ذلك من عدل، وتقوى وعفة وتعاون، وتحابب وذكر الله تعالى، إلى غير ذلك من أعطيات هذا الحديث أسلوباً وموضوعاً. (١)

شمول الحديث واستيعابه:

يلحظ المتأمل في هذا الحديث من جهة الشمول والاستيعاب: أنه اشتمل أطراف المجتمع الإسلامي من الإمام في عدالته وعدله، والشباب في نشأتهم، والأفراد في ترابطهم، والجنسين في تعففهم، والطبقات الغنية والفقيرة في تقاربهم، وأعمال الدنيا والدين في ذكركم لله وعدم غفلتهم.

انتظم أصنافاً متفاوتة، من قمة المجتمع إلى قاعدته رجل في نفسه لا يعلم به أحد إلا الله يذكر الله خالياً حتى تفيض عيناه.

المعاني المشتركة بين الأجناس السبعة:

قال الشيخ عطية محمد سالم: "من مبادئ البلاغة والعادة: أنه لا تورد متعدّدات الاعم التجانس، لحسن النسق وجمال التنسيق، كلبّات الجوار، وحبّات العقد، وكذلك الكلام والبلاغة النبوية: هي الذروة والقمة، وقد أعطى ﷺ جوامع الكلم، وكذلك مجامع الحكم. فكما أن أسلوب الحديث النبوي مبرراً من تنافر الكلمات، ونشاز العبارات، فكذلك

(١) في "ظلال عرش الرحمن" (ص ٢٧-٢٨).

في المعاني.

فإيراد هذه الأصناف السبعة في أسلوب واحد، مع تفاوتها، في مواضعها، وبعدها ما بين بعضها البعض، لابد أن فيها ما يربط بعضها ببعض من معنى شامل، يسوغ نظمها في إيرادها لما تقتضيه البلاغة النبوية العالية، ويستوجبه خلو الحديث النبوي من النثر والتنافر.

وقد أعطى في ذلك ما لم يُعطه أحد، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح العرب والعجم، مما يدعونا إلى تأملها بعين تتطلع إلى ما يقال له: فائدة الخبر لازم الفائدة، وهو أبعد غايات البلاغة^(١).
أولاً: الرغبة والرغبة في الله ومن الله:
ثانياً: مراقبة الله والإخفاء عن الناس:

وإن كان بعض الصور تبدو ظاهرة محسوسة، إلا أنه مرتبط بعنصر الإخفاء حتى لتكاد تكون من باب واحد، وهو مراقبة الله، والخوف منه، وإيداع ودائع السر عند الله لسان لحالهم: ضع كنزك عند من لا يضيعه.

الإمام العدل والعدل:

فأما الإمام العدل والعدل، فعدالته لم تتحقق إلا بتقوى من الله، وأما عدله فلا يكون إلا خوفاً من الله من مظالم العباد، أو رجاء فيما عند الله من دوام ولايته.
ومعلوم أنه لا سلطان عليه من الرعية، وإنما حقيقة السلطان عليه هو الله، ومن ناحية أخرى لا يطلع على حقيقة عدله إلا الله، فكم يعطي ويمنع ويدني ويقضي ويكرم ويهين، ولكم يعمل سرا وخفية، وكل ذلك لا يطلع عليه إلا الله سبحانه، وقد يوقع ما قد يُستنكر منه فيتعلل أنه للصالح العام ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ (٢).

والشباب الناشئ في عبادة الله:

هو لا يرجو ولا يرهب إلا جناب الله، ثم إنه لا يطلع على حقيقة عبادته وسر إخلاصه إلا الله، ولا يراه دائماً في خلوته وجلوته، وسره وجهه إلا الله سبحانه وتعالى.

(١) في ظل عرش الرحمن (ص ٥٩-٦٠).

(٢) سورة البقرة: (٢٢٠).

والرجل المعلق قلبه في المساجد:

لم يتعلق قلبه به لدنيا يصيبها، ولا لامرأة يتزوجها، ولا لجاه يحصل عليه، وإنما رغبة ورهبة لله، وفي الله لما تذوّق من حلاوة المناجاة لله في بيت الله. ومن السر النبوي هنا: أنه أسند التعلق لقلبه لا لجسمه، ولا لنظره، لأن حلاوة الإيمان محلها القلب، وأقوى مؤثر في ذلك هي الصلاة، كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم: "وجعلت قرّة عيني في الصلاة".

وأما المتحابون في الله:

أي لا مال بينهم، ولا نسب يربطهم، ولا رحم يجمعهم، ولا على مصالح تدفعهم، إنما هو لله، وفي ذات الله، وكذلك لا يعلم حقيقة نصح كل منهما الآخر إلا الله، فإذا اجتمعا كان لله وإذا افترقا كان لله، أي لما يقع من أحدهم ما لا يرضي الله، فارتباطهم حقا في ذات الله.

والمتصدق في الخفاء:

تغلب على شح نفسه في ماله، وتخطى حب الثناء وطبيعة حب المدح، فغالب في نفسه غريزتين: غريزة الشح الحاضرة في الأنفس، وغريزة حب الثناء المجبولة عليها النفوس. وبذل المال في قانون الحياة لا يكون إلا بمعاوضة إلا في الصدقة، فالمعاوضة فيها معدومة، بل العوض منتظر من الله، فالإخفاء ركنها الأكبر، والرغبة فيما عند الله الدافع الأول، فإخفاؤها يُطهرها من شائبة الرياء، وهذا نهاية إرادة وجه الله.

وأما الباكي من خشية الله:

فإن عنصر الإخفاء في نص قوله صلى الله عليه وسلم: "ذكر الله خالياً" أي خاليا عن الناس وفي خلوة وحده — أو خاليا قلبه من الشواغل فسواء، وكذلك عنصر الخوف، وهل أبكاه إلا خوفه من الله؟ إما من ماضٍ أساء فيه، أو مستقبل لا يعلم ما الله فاعل به ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ (١)، (٢).

المعنى الثالث: ارتباط هذه الأجناس بعضها ببعض، وتأثير بعضها في بعض:

ولاسيما في النسق الذي أورده البخاري — رحمه الله — في بعض رواياته، فقد اتفق

(١) سورة المعارج الآية (٢٧). (٢) في ظلال عرش الرحمن (ص ٦٠ - ٦١).

الرواة في ترتيب الأصناف الثلاثة الأولى: إمام عادل، شاب نشأ في عبادة الله، رجل قلبه معلق بالمساجد، وإن اختلفوا في التقديم والتأخير في البقية فعلى بعض روايات البخاري، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعت امرأته، ورجل تصدق، ورجل ذكر الله.

وبتأمل هذا الترتيب، نجد تلك الأصناف بعضها مع بعض، بمثابة المقدمات والنتائج والأسباب ومسبباتها، والآثار ومؤثراتها، فما يشهد حقاً بأن كل متعددة في الحديث النبوي مترابطة المعاني وإن اختلفت المباني.

فالإمام العادل سيقم مجتمعاً فاضلاً ولاسيما وهو في ذاته عدل أي مستقيم آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مقيماً للصلاة ومؤتياً للزكاة، ومن الأمر بالمعروف إقامة محاسن التشريع، ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود، سيكون مجتمعه حقاً فاضلاً تنشأ فيه النشأة، ويشب فيه الشباب على هذا المنهج في عبادة الله.

ومن أخص تلك النشأة ارتياد المساجد، حفاظاً على الصلوات في الجماعة، ومن كان هذا حاله من أول نشأته، لا شك أنه سيتعلق قلبه بالمساجد، ومن تعلق قلبه بالمساجد داوم على ارتيادها، وكان من لوازم ذلك التعارف على المصلين ومحبتهم والشعور بالإخاء، وكان من لوازم ذلك التعارف على المصلين ومحبتهم والشعور بالإخاء معهم، فينتج قطعاً التحاب في الله، لأنهم جميعاً مثله ما جاؤوا إلى المساجد إلا لما جاء هو إليه، وهو ابتغاء وجه الله، وإلى هنا قوى وجه هذا الارتباط، وظهر مدى هذا التأثير في تكوين أفراد المجتمع.

أما من دعت امرأته فتعفف عنها، فإن عفته عنها لم تأت عفواً بل بعد مغالبة الغريزة والفطرة ولا يغلب الغرائز إلا ما كان أقوى منها، ولا يكون إلا الإيمان بالله، والخوف من الله، ولا يورث هذا إلا تلك الصلوات في تلك المساجد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (١).

وكذلك إخراج المال في غير معاوضه، وتخطي غريزة الشح، وجبلة حب الثناء كان من تلك المؤثرات، ومن قوى على مغالبة الغريزة الجنسية فهو على غيرها أقوى، وهل من يستطيع ذلك كله يكون غافلاً عن ذكر الله في السر والعلانية؟ لا، وكلا، وهكذا فكل صفة في

صنف تؤثر في الصنف الذي يليها". (١)

المعنى الرابع: اشتراكهم في مخالفة هواهم:

قال ابن القيم - رحمه الله - : "إنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى. ☆ فإن الإمام المسلم القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه. ☆ والشباب المؤثر لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك. ☆ والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حملة على ذلك مخالفة الهوى الداعي له إلى أماكن اللذات.

☆ والمتصدق المخفي لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك. ☆ والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل وخالف هواه. ☆ والذي ذكر الله عز وجل خاليا ففاضت عيناه من خشيته إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة.

الجزء من جنس العمل في هذا الحديث:

قاعدة "الجزء من جنس العمل" متحققة في هذا الحديث: بحيث أن الله سبحانه نظر إلى هذه الأصناف وقد جمعت بين الخوف من الله وإخفاء العمل رجاء فيما عند الله. وأنه سبحانه آمنهم يوم الفزع الأكبر فقابل خوفهم بالأمن، وقد جاء الأثر: "إني لا أجمع على عبدي خوفين أو أمنين، فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة....." الحديث. ولما كانوا مخلصين إليه العمل وكانت أعمالهم خفية تولى سبحانه جزاءهم في الآخرة، فأواهم إلى ظله وظل عرشه، كما جاء في الصوم إذ قال عنه: "فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي.....". وهكذا هؤلاء أقوام أتوا وتركوا ما تركوا من أجله هو سبحانه، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا معهم" (٢).



(١) في ظلال عرش الرحمن (ص ٦٢-٦٣). (٢) في ظلال عرش الرحمن (ص ٦٣).